الصـــــدق فى الأدب

للأســـــتاذ مهدى القزاز

فى بعض الأوقات تكون قلوبنا عامرة بالعواطف ، مثقلة بالإحساسات ، تتدفق بألوان الشعور ، وتحيا بفيض من الإشراق وتنبض بمختلف الأمانى والأحلام ... تحاول الانطلاق فى أجواء فاتنة تضج بالأنغام والأضواء والشذى والعطر ، لتنغمر فى الوجود الذى يهيىء لها الابداع والخلق والابتكار ، إذا كان لها نصيب من حسن الذوق وبراعة الإنتاج ..

يشعر القلب فى مثل هذه الفترة أن الحياة تتفجر نوراً وجمالا وتتضوع أريجاً مسكراً ، فيختلج ليلهم الأديب الفنان والشاعر الملهم والكاتب الموهوب أروع الصور الذهنية ويضفى على انتاجهم روعة الصدق وحرارة الإخلاص وسمو العاطفة ، فيحيا فى كل أعمالهم وما يفكرون وينتجون ويبدعون ، فيكون لأدبهم وكتاباتهم أثر فى كل نفس وصدى فى كل روح لأنها نتيجة شعور صادق وإيمان عميق بما يكتبون ويفكرون ...

وفى بعض الأحيان تجدب قلوبنا وينتابها التبلد والخمول وتتيه فى ظلمة قاسية من الجفاف والخواء ترقد فيها العواطف وتشيع الكآبة فى النفس ويرين الحزن على القلب فلا يشعر بالنور وتتلاشى فيه الأضواء وتنعدم الأخيلة ، فيحس أن الحياة مغمورة بالضباب فلا ترى العين ولا ينفذ الفكر ولا يومض الذهن وفى مثل هذا العدم يتوقف القلب عن الإيحاء الصادق ولا يوحى إلا بالتافه من الأمور والضحل من الأفكار .

فى مثل هذه الحالات يجب على الأديب الصادق الذى يكتب بعاطفة وشعور يستمدها من قلبه أن يريح قلمه إلى حين وإلا بدا عليه الاسفاف ظاهراً والاجترار ملموسا والتكلف واضحاً لأن نبضات قلبه يجب أن تبرز دائماً فى كل عمل من أعماله الأدبية وإنتاجه الذهنى فإذا فقدها خلت كتاباته من عنصرها الأساسى وهو (روح الكاتب) .

يقول الأستاذ (توفيق الحكيم) فى كتابه (زهرة العمر) « إن تربية ملكة العقل وحدها لا تكفى عند رجل الأدب والفن إن لم يصحبها إيحاء القلب وإلهام العاطفة وملكة التذوق ... وهو يشترط اشتراك القلب ووحيه فى كل عمل من الأعمال الذهنية والانتاج الفكرى » .

فالقلب ينبوع العواطف والأحاسيس منه تنبعث أحلى الأنغام وأسطع الأضواء وأعذب الألحان وأعمق الأفكار . وفيه تحيا كل القوى التى تسيطر على حياتنا وتجعلها مشرقة وضيئة حيناً وقاتمة مظلمة حيناً آخر . أما العقل فهو القوة التى تنظم ما يجول فى القلب من تيارات وينبض فيه من عواطف وأحاسيس ، وعمله كعمل الفنان أو المصور الذى يضفى ريشته وألوانه على الصور والألحان ما يزيدها عذوبة وجمالا ويعطيها جاذبية وإيحاء يكسبها الخلود .

* * *

يحسب بعض الناس أن الأدب لا يعدو كونه صناعة من الصناعات لا يحتاج إلى فهمه والنبوغ فيه كبير مشقة وعناء إلا ما يحتاجه صاحب المهنة لإتقان إحدى الصناعات اليدوية والبروز فيها والتفنن فى إظهارها للناس بالمظهر الذى يجعلها أكثر اتقاناً وإغراء للمشارين . كما يحسبه بعضهم تجارة تخضع لقاعدة العرض والطلب فيفهمون الأديب الناجح بمقدار ثروته وما تدر عليه كتاباته من مال وثراء فإذا أخفق فى جلب الثروة ولم يتمكن من الربح المادى عدوه فاشلا ونظروا إلى كتاباته نظرة عدم اهتمام كما ينظرون إلى بضاعة من البضاعات كسدت ولم يبق لها شار فى السوق .

وبعضهم يرى الأديب الناجح من كثر إنتاجه وتعددت الصحف التى يكتب فيها والتى تنشر اسمه وتنوه بكتبه وآثاره غاضين النظر عن قيمة هذه الكتب والآثار الأدبية من وجهة الجمال والفن والابداع ، وما فى أفكار صاحبها من ابتذال وفسولة .

وهؤلاء الذين فهموا الأدب والأديب هذا الفهم الخاطىء معذورون لأنهم لم يتوصلوا إلى فهم الحياة أو يتذوقوا ما فى الوجود من أسرار وجمال وعواطف . ولأنهم يكتبون ويفكرون ويحكمون بعقولهم فقط تاركين قلوبهم هملا لا تحيا فى أعمالهم الأدبية وما يصدرونه من أحكام . كالآلات الميكانيكية تعمل وتنتج فى كل وقت وفق خطة مرسومة لا تحيد عنها قيد شعرة .

وبسبب هذا الفهم المغلوط وانتشاره فى الأدب العربى والأدباء العرب نشاهد كثيراً من الذين يكتبون ويؤلفون تبدو آثار الصنعة والتقليد وبرودة الموت فى إنتاجهم لأنهم يكتبون بدون عاطفة وإحساس بهذا الخارق العظيم فى الحياة وهو القلب ولزوم اشتراكه

أو ظهوره فى إنتاجهم وكل أعمالهم . وذلك لأنهم تعلموا الأدب ودرسوه كصنعة من الصناعات ومهنة من المهن لذلك جمد إحساسهم وماتت عواطفهم فجاء أدبهم صورة تنطق بالفقر من الإحساس والتصوير والابتكار .

وإنى أطالع أحياناً ما يكتبه الكاتبون والأدباء ، وخاصة فى الأدب الوجدانى ، فأرى فى آثارهم صدق الإحساس وحرارة التعبير وشبوب العاطفة ، وهذه هى صفات الأدب الصادر فى صدقه وحرارته وشبوبه عن وجدان حساس تهزه العاطفة فينتفض وتمسه الأزمة فيرتعش . وأطالع أحياناً أخرى آثار بعض الأدباء الآخرين فأرى التكلف فيها واضحاً والاجترار ملموساً والصنعة ظاهرة وهذه هى صفات أدب التصنع الذى لا يثير فى النفس إحساساً ولا يحرك عاطفة ولا يعالج عقدة ، وذلك لأنهم يكتبون كتابة آلية لا تدعوهم إليها دواعى الوجدان أو تثيرهم إحدى الأزمات النفسية فتلهب عواطفهم وتحرك قلوبهم .

وإنى امرؤ أقرأ الأدب بقلبى وعاطفتى وأحكم على صدقه بما يثيره فى نفسى من اهتزازات وأحاسيس تجعلنى أشارك كاتبه فى الشعور والإحساس رغماً عنى لأنه صادر عن قلب حساس يتألم أو ينتشى ، ويصور بصدق ما ينتفض فى القلب من اختلاجات وما يجول فى الذهن من أمانى وآراء . أما الأدب الكاذب فهو الذى لا يثير أدنى شعور ولا يحرك خلجة فؤاد لأنه صادر عن عقل جامد صدىء يتصنع الشعور ويتكلف الإحساس .

إن القلب يجب أن يحيا فى كل ما يكتبه الكاتب والأديب وإلا جاء إنتاجه ممسوخاً وخالياً من كل شعور أو إحساس ، لأنه يكتشف بذلك عوالم مليئة بالجمال حافلة بالمتع والمباهج . حتى الألم عنده له لذة غريبة تكسب أدبه جمالا فنياً رائعاً كجمال تماثيل الفواجع الخالدة . وعندها يكون تفكيره وإنتاجه صادقاً ينقل الصور ويسجل الحوادث ويزيد فى ذخيرة الأدب لوناً يكسبه الخلود ..

لذلك يجب على الأديب الحق الذى يحاول أن يكون فى أدبه خالقاً وفى آرائه مبدعاً وفى تفكيره ناضجاً ، أن تكون هناك صلة وثيقة داعمة بين عقله وقلبه وقلمه وبما يفكر ويكتب ويصور ، لأن جميع الأعمال الأدبية والفنية لا يكتب لها الخلود إلا إذا كانت صادرة من قلب ينبض وعقل ينظم وقلم يكتب ويصور .

أما هؤلاء الذين نراهم ، فى كل يوم ، يسودون الورق بهزيل الأفكار وتنميق الألفاظ وبهرجة العبارات بدون أن يكون لإنتاجهم صدى يبعث فينا الروعة التى نشعر بها أو نحسها عندما نطالع أثراً أدبياً أو نرى عملا فنياً اشترك فيه القلب والعقل . أما هؤلاء فسيظلون على الهامش وستذهب كتاباتهم مع الريح .

(بغداد) مهدى الفرائر

مطبعة الرسالة

تقدم اليوم

الطبعة الفاخرة من كتاب

ابراهام لنكولن

للأستاذ محمود الخفيف

يقع فى زهاء ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير على ورق صقيل ، ومحلى بأكثر من ٢٠ صورة ملونة ... الرجل الذى خرج من أحراج الغابات فكان من أعظم ما أنجبت الإنسانية فى جميع عصورها ... لنكولن النجار . لنكولن المحامى . لنكولن الرئيس . لنكولن المحرر . تفصيل لقضية الرق فى أمريكا . وقضية الديمقراطية والحرية فى سيرة هذا القلب الإنسانى الكبير ...

يا شباب الوادى

خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى

من سيرة هذا العصامى العظيم

يطلب من دار الرسالة ومن جميع المكتبات الشهيرة

وثمنه ٣٥ عدا البريد